شخصية السلطان الأيوبي الملك المعظم توران شاه: تقييم للمصادر

د. تركي بن فهد آل سعود
قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الملك سعود

لم تحظ قضية مقتل السلطان الأيوبي الملك المعظم توران شاه (٦٤٧-٦٤٨هـ/ ١٢٤٩-١٢٥٠م) بن الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل، بدراسة تحليلية -حسب علمي- تحلل المصادر وتبحث علاقتها بالحدث، وتأثير الظروف التي كُتِبَت خلالها في رؤيتها وتفسيرها له. ووجدتُ دراسة واحدة لسالم يونس المولى[1]، تناول في جزء منها هذا الحدث، وخرج بتفسير أتفق معه في معظمه، إلا أنه لم يتناول بالتحليل السريع إلا مصدرًا واحدًا، هو الأمير حسام الدين أبو علي بن محمد الهذباني (ت ٦٥٨هـ/١٢٥٩م)، أما غيرهما فلم يكونوا مصادر، بل ناقلين لروايات المصادر.

(قدم للنشر في ١٨/٨/١٤٣٥هـ، وقبل للنشر في ٩/٣/١٤٣٦هـ).

(١) سالم يونس محمد المولى، "دور المماليك في إنهاء الحكم الأيوبي في مصر ٦٤٨هـ/١٢٥٠م"، **مجلة ابحاث كلية التربية الأساسية**، مج ٩، ع ٣ (حزيران ٢٠١٠م): ٤٢٣.

فلعلّ تقييم المصادر في هذه الدراسة يوضّح لنا ملابسات لم يسلّط عليها الضوء من قبل، فإن إعادة النظر في المصادر وتقييم تأثّرها وتأثيرها يخرج منه الباحث بتفسير جديد مغاير للسائد المقبول، وهذا - من وجهة نظري- هو دور نحتاج إليه أشد الحاجة، خاصة في المجال الأكاديمي.

التعريف بمشكلة البحث:

يجد الباحث في المصادر عن العهد القصير للسلطان توران شاه بن نجم الدين أيوب روايات متناقضة عن شخصيته وسياساته، وهذا متوقّع؛ خاصة إذا وضعنا في الحسبان أنه كان آخر سلاطين الدولة الأيوبية، وبمقتله نشأت دولة جديدة هي دولة المماليك(٢). أما غير المتوقع فهو أن تكون هذه التناقضات وردت على لسان المصدر نفسه، وقُبِلَت كما هي دون مساءلة وتحليل لأوقات الروايات ومزامَنتها لمصالح المصدر وعلاقته بالحدث.

فنجد مثلاً أن السلطان توران شاه كان أديبًا فقيهًا عالمًا عاقلاً محبًا لمجالسة العلماء ومناظرتهم(٣). ونجد أيضًا أنه

(٢) تتفق كثير من المصادر أن الدولة الأيوبية انتهت بمقتل توران شاه، على الرغم من بيعة المماليك فيما بعد لطفل أيوبي نصبوه بعد الفترة القصيرة (ثلاثة شهور) التي حكمت فيها شجر الدر، وهو: الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الملك الناصر يوسف.

(٣) محمد بن سالم ابن واصل، **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري (صيدا، بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م)، ١٠٠، ١١٦، ١١٨-١٢٠. سوف أميّز هذه النسخة =

كان ماجنًا مستهترًا فيه خِفَّة وطيش[٤]. ويُحسب للحافظ الذهبي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٨م) تنبّهه لهذا التناقض عندما نقل ثلب توران شاه عن سعد الدين ابن حَمُّوَيه (ت ٦٧٤هـ/١٢٧٦م) -وهو أحد المصادر- فقال: "قلتُ: لكنه [توران شاه] كان قويَّ المُشاركة في العلوم، حسنَ المُبَاحَثة، ذكيًّا"[٥]؛ وكأنه يذكّر القارئ بصفاته الأخرى التي كان قد أوردها، ويحاول التوفيق بينها وبين جانبه الآخر.

ولحل هذا التناقض لا بد أولاً من تقييم المصادر كما ذكرنا، ولا نقصد الكتب التي نَقَلَت، بل نقصد مصدر الرواية التي نقلتها تلك الكتب. ولكي نصل إلى تقييم صحيح لا بد من ذكر شيء من ترجمة تلك المصادر.

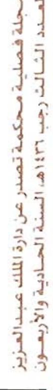
المصادر:

١ - سعد الدين مسعود (وقيل الخضر) بن عبدالسلام (وقيل بن عبد الله) بن عمر بن علي بن محمد بن حَمُّوَيه

= فيما بعد بـ (تدمري) للتفريق بينها وبين الخمسة الأجزاء الأولى التي طبعت بتحقيق جمال الدين الشيال في دار الكتب بمصر؛ أحمد بن علي المقريزي، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق: محمد مصطفى زيادة وسعيد عبدالفتاح عاشور (مصر: لجنة التأليف والترجمة والنشر، دار الكتب، ١٢٧٦-١٤٠٣هـ/١٩٥٦-١٩٨٣م)، ١/ق٢: ٣٥٣.

(٤) يوسف بن قزأوغلي سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان في تواريخ الأعيان**، تحقيق: إبراهيم الزيبق (دمشق: الرسالة العالمية، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م)، ٢٢: ٤١٦-٤١٧؛ محمد بن أحمد الذهبي، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق: بشار عواد معروف (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ١٤: ٥٩٦-٥٩٧.

(٥) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ١٤: ٥٩٧.



الجويني (ت ٦٧٤هـ/ ١٢٧٦م). بدأ حياته جنديًا مع أبناء عمّه بني شيخ الشيوخ ابن حَمُّوَيه، إلى أن قُتِل توران شاه، وقبله ابن عم سعد الدين الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ[٦]، في أثناء هجوم صليبيي الحملة السابعة على المنصورة[٧]. فخرج من الخدمة، وهو في نحو الخمسين من عمره، وعاد إلى دمشق، حيث تصوَّف "ولبس البَقْيار"[٨]، وشارك أخاه شيخ الشيوخ شرف الدين عبد الله (ت ٦٧٨هـ/١٢٨٠م) في مشيخة دمشق، وجمع كتابًا في التاريخ[٩].

٢ - الأمير حسام الدين أبو علي بن محمد بن أبي علي بن باساك الهذباني الكردي (ت ٦٥٨هـ/١٢٥٩م). أستدار[١٠]

---

(٦) ستأتي ترجمته.

(٧) سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ٢٢ : ٤١٠-٤١١؛ ابن واصل، **مفرج الكروب**، (تدمري)، ١١١.

(٨) البَقْيار: ضرب من العمائم. راجع: رينهارت دوزي، **تكملة المعاجم العربية**، ترجمة: محمد سليم النعيمي (بغداد: وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٨٠م)، ١: ٤٠٧.

(٩) موسى بن محمد اليونيني، **ذيل مرآة الزمان** (حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م)، ٣: ١٦٢؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ١٥: ٢٧٤؛ خليل بن أيبك الصفدي، **الوافي بالوفيات**، تحقيق: هلموت ريتر وآخرين (فيسبادن: فرانز شتاينر، ١٣٨١-١٤٢٩هـ/١٩٦٢-٢٠٠٨م)، ١٣: ٣٣٢.

(١٠) الإسْتَدَّار: لقبٌ من وليَ قبض مال الأمير أو السلطان وصرفه في أوجهه. وهو مركَّب من لفظتين فارسيتين: (إستذ) ومعناها الأخذ، و(دار) ومعناها المُمسك. فمعناها: المتولي للأخذ. وينبّه القلقشندي على أن كتابتها (أستاذ الدار) خطأ، لأن من كتبها هكذا ظن أنها من لفظة (الدار) العربية، و (أستاذ) بمعنى السيد أو الكبير، وليس الحال =

الملك الصالح ومحل ثقته، اتصل بخدمته سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م[١١]؛ وكان مع توران شاه في حصن كَيْفَا[١٢] أتابك[١٣]، ثم حضر إلى الشام خلال سعي الملك الصالح إلى السلطنة، وقبض عليه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل[١٤]، ثم أفرج عنه، والتحق بالملك الصالح

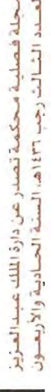
= كذلك. راجع: أحمد بن علي القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا** (مصر: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، د. ت)، ٥: ٤٥٧.

(١١) محمد بن سالم ابن واصل، **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق: جمال الدين الشيال وآخرين (مصر: دار الكتب، ١٩٥٣-١٩٧٥م)، ٤: ٢٥٩.

(١٢) بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر، وقد كانت مقر الملك الصالح قبل سعيه إلى السلطنة، وقرر عليها ابنه توران شاه عند خروجه إلى بلاد الشام، واستمرّ بها إلى أن دعاه المماليك لتسلم سلطنة أبيه في مصر، فخرج منها وبقي فيها ولده، واستمر حكمها في عقبه بها وقتًا طويلاً. انظر عن الحصن: ياقوت الحموي، **معجم البلدان** (بيروت: دار صادر، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، ٢: ٢٦٥؛ ابن واصل، **مفرج الكروب**، ٥: ٢٩٥-٢٩٦.

(١٣) الأتابك: لفظ تركي مركَّب، أصبح موازيًا لكبير الأمراء. راجع: القلقشَندي، **صبح الأعشى**، ٤: ١٨.

(١٤) الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن الملك العادل محمد بن أيوب، صاحب دمشق وبعلبك وبُصرى. حكم دمشق بعد وفاة أخيه الملك الأشرف، وحدثت له خطوب طويلة في حروب ونزاع ضد الملك الصالح نجم الدين أيوب، فقد فيها مناطق حكمه ولجأ إلى حلب، وبقي فيها. ثم أسره المماليك في أثناء غزوه مصر مع الملك الناصر بعد مقتل توران شاه؛ فسُجن ثم أخرج وقتل سنة ٦٤٨هـ/١٢٥١م. انظر: ابن واصل، **مفرج الكروب**، (تدمري) ١٦٥؛ سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ٢٢: ٤١٥؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ١٤: ٥٩٣؛ الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ٩: ٢١٥.



أيوب في مصر، ثم ولي نيابة الشام ومصر، واستمر إلى أن عزله توران شاه بعدما تولى السلطنة(١٥).

٣- محمد بن سالم بن نصر الله ابن واصل (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م): قاضي حماة والمؤرخ المعروف، له اختصاص بعلوم غير التاريخ والفقه، منها: الرياضيات والفلك والفلسفة، وكان يعدّ من الأذكياء المميزين(١٦)، لازم بعد وفاة أبيه سنة ٦٢٩هـ/١٢٣٢م الملك الناصر(١٧) داود(١٨)، ثم توجَّه إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب في مصر سنة ٦٤١هـ/١٢٤٤م(١٩)، فالتحق بخدمة نائبه الأمير حسام الدين أبي علي الهذباني، ثم ولّاه الملك الصالح

---

(١٥) ابن واصل، **مفرج الكروب**، (تدمري) ١٠٦، ١٢٥، ٩٨ هـ ٢: ابن واصل، **مفرج الكروب**، ٥: ١٨٩، ٢٠٨؛ اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**، ٢: ٧٧-٨٧، ٣٣٣؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ١٤: ٩٠٧.

(١٦) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ١٥: ٨٦٤؛ الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ٣: ٨٥.

(١٧) الملك الناصر صلاح الدين داود بن الملك المعظم عيسى بن محمد بن أيوب، صاحب دمشق ثم الكرك، وكان أديبًا شاعرًا، أخذت منه دمشق ثم أخذت منه الكرك، ومات في قرية البويضاء بظاهر دمشق سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م. انظر عنه: أبو شامة عبدالرحمن بن إسماعيل، **تراجم رجال القرنين السادس والسابع (المعروف بالذيل على الروضتين)**، تصحيح: محمد زاهد الكوثري، ط٢ (بيروت: دار الجيل، ١٩٧٤م، نسخة مصورة عن طبعة مكتب نشر الثقافة الإسلامية بالقاهرة)، ٢٠٠: ابن واصل، **مفرج الكروب**، (تدمري)، ٢٢٣؛ اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**، ١: ١٢٦، الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ١٤: ٨٠٤.

(١٨) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ٥: ١٨، ٣٥.

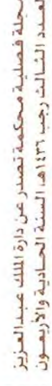
(١٩) السابق، ٣٣٣، ٣٢٤.

التدريس في الجامع الأَقمَر[٢٠] سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م[٢١]، واستمر على ذلك إلى مقتل السلطان الملك المعظم توران شاه.

هؤلاء الأشخاص (المصادر) هم الذين عوّل عليهم المؤرخون، واستقوا منهم معظم -إن لم تكن جميع- الروايات عن توران شاه، سواء بشكل مباشر، أو بالنقل عمن نقل عنهم مباشرة. فالنقل عن سعد الدين ابن حَمُّوَيه يكون عادة عن كتابه أو عن مرجع نقل عنه. وأما عن الأمير حسام الدين فيكون النقل سماعًا مباشرة، وهذا ما نجده عند ابن واصل وسبط ابن الجوزي، أو نقلاً لرواياته عن هذين المصدرين. وعن ابن واصل يكون عن طريق كتابه الشهير (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب). أما النقل عن مصادرَ مجهولة تُسبق بألفاظ مثل (قيل، ويقال) فهذه يوردها المؤلف وهو شاكٌّ فيها أصلاً، وإلا لما أورد هذه الألفاظ قبلها، ولا نستطيع تقييم تلك الروايات ولا بناء حكم على رواية لا سبيل إلى تقييمها، فقد يكون راويها مثلاً أحد من باشر قتل توران شاه، وغيّب اسمه من نقل عنه متعمّدًا لعلمه بأن ذلك سيضعف مصداقية الرواية، ومثل هذا يحدث كثيرًا.

(٢٠) الجامع الأقمر: من جوامع القاهرة بناه الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله (٤٩٥-٥٢٤هـ/١١٠٢-١١٣٠م) في سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م. راجع: عبد الله بن عبدالظاهر. **الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة**، تحقيق: أيمن فؤاد سيد (القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م)، ٧٣؛ أحمد بن علي المقريزي. **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** (بيروت: دار صادر، د.ت)، ٢: ٢٩٠.

(٢١) ابن واصل، **مفرج الكروب**، (تدمري)، ٨٩.



فلنبدأ أولاً بروايات سعد الدين ابن حَمُّوَيه: فأولى العلامات التي نلحظها أن من ترجم له - كما ورد في هامش سابق- ونقل عنه هذه الروايات وغيرها، لا يعرف اسمه واسم أبيه على وجه التحقيق، ولا يقدح هذا بالضرورة في المصداقية، لكنه يوضّح لنا تمامًا عدم معرفة من نقل عنه به معرفة وثيقة؛ بمعنى أنه قد اجتمع به مرة أو مرات اجتماعات عابرة، ولا ضير في هذا أيضًا، إلا أنه يعكس ضعف حكم الناقل على شخصية المنقول عنه وتأثيرها في الحدث المروي. فسعد الدين رجل بدأ حياته بالجندية مع أبناء عمه، كما ورد سابقًا، ثم خرج منها وهو في نحو الخمسين، وعاد إلى دمشق واستقرّ بها ودخل مع أخيه في مشيخة دمشق. فلنحلل هذه التنقلات:

- انضم إلى الجندية مع أبناء عمه، الذين تقلّدوا جميعًا مناصبَ عليا[٢٢]، وظل هو في موقعه لم يبرز في الجندية، ولا وصل إلى منصب ذي خطر.

(٢٢) عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ محمد ابن حَمُّوَيه (ت ٦٣٦هـ/١٢٣٩م)، انظر عنه: أبو شامة، **تراجم**، ١٦٧؛ سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ٢٢: ٣٦٠؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ١٤: ٢١٩. وأخوه فخر الدين يوسف (ت ٦٤٧هـ/١٢٥٠م)، انظر عنه: ابن واصل، **مفرج الكروب**، (تدمري)، ١١١-١١٥؛ سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ٢٢: ٤١٠؛ اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**، ٢: ٢١٤؛ محمد بن شاكر الكتبي، **فوات الوفيات والذيل عليها**، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار صادر، د.ت)، ٤: ٣٦٦؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ١٤: ٥٨٦. وأخوهما كمال الدين أحمد (ت ٦٤٠هـ/١٢٤٢م)، انظر عنه: أبو شامة، **تراجم**، ١٧٢؛ سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ٢٢: ٣٧٥؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ١٤: ٣١٢. وأخوهم معين الدين حسن (ت ٦٤٣هـ/١٢٤٦م)، انظر عنه: أبو شامة، **تراجم**، ١٧٧؛ سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ٢٢: ٣٩١؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ١٤: ٤٣٩.

- بل لم يستطع الاستمرار في وظيفته العسكرية بعد مقتل آخر أبناء عمه -فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ- فعاد إلى أخيه "الأصغر" شرف الدين[٢٣] بدمشق ليجد له وظيفة، فأشركه معه في المشيخة.

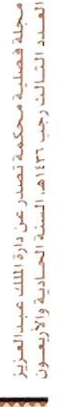
هذا فيما يخص كفاءته العملية، أما فائدة ذلك في تقييم المصدر في رواياته عن مقتل توران شاه تحديدًا، فهي متعلّقة بموقف توران شاه من آخر سندٍ لمصدرنا في جاهه ووظيفته، وهو ابن عمه فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، الذي كان نائب السلطنة، وهو ما لم يصله أحد من إخوته على الرغم من مناصبهم العالية[٢٤]، بل لقد وصفه ابن واصل بقوله: "وانتهى إلى قريب رتبة الملك الصالح نجم الدين أيوب"، ويُضيف: "وكانت همّته تترقّا إلى المُلك"[٢٥]. وتتضّح لنا ملاحظة ابن واصل هذه أكثر عندما يحدّثنا عن خوف الأمير حسام الدين أبي علي - وهو المصدر الآخر - من استيلاء فخر الدين على السلطنة بعد وفاة الملك الصالح نجم الدين[٢٦]. إلا أن ابن واصل محسوب على الأمير حسام الدين أبو علي - منافس فخر الدين - وهذا واضح من خلال إيماءات متعددة منه في قدح فخر الدين وترجيح كفّة حسام

(٢٣) اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**، ٣: ١٦٢.

(٢٤) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ١٤: ٥٨٧. وانظر بقية مصادر ترجمته في الهامش رقم: ٢٢.

(٢٥) ابن واصل، **مفرج الكروب**، (تدمري)، ١١١.

(٢٦) السابق، ١٠٤. وقد لاحظ المقريزي هذا التنافس بينهما. انظر: المقريزي، **السلوك**، ١/٢: ٣٤٥.



الدين[٢٧]. لكن المصادر تتفق على أن الشائع عند الناس في وقت الحدث أن فخر الدين كان يطمع في السلطنة[٢٨]. وهذا ليس تخميناً بل يقيناً، إذ أورد سعد الدين أن فخر الدين حلَّف الناس بالبيعة لتوران شاه، وله هو (فخر الدين) بولاية العهد[٢٩].

ولما وصل توران شاه إلى المنصورة كان شديد الغضب على فخر الدين، فنجد سبط ابن الجوزي (ت ٥٨١هـ/ ٦٥٤م) ينقل التالي: "ولما وصل تورانشاه إلى العسكر أخذ مماليكَ فخر الدين الصّغار، وبعض قُماشه بنصف القيمة، ولم يعطهم دِرْهَماً، ولا عوَّض الورثة بشيء، وكان الثمن خمسة وعشرين ألف دينار، وكان إذا جلس جعل حسنات فخر الدين سيئات، يقول: أطلق الكتان والسكر، وأنفق الأموال، وأطلق المحابيس، فأيش ترك لي أنا؟ فكان حِفْظُه الملك وسياسةُ العسكر، ومقاتلة الفرنج من أكبر ذنوبه"[٣٠].

(٢٧) السابق، ١٠٠، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥.

(٢٨) سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ٢٢: ٤١٠؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ١٤: ٥٨٧. وأهمية الذهبي هنا أنه ينقل عن سعد الدين كثيرًا من هذه الأحداث، كما صرّح غير مرّة أنه أجازه لرواية تاريخه عنه. انظر مثلاً: **تاريخ الإسلام**، ١٤: ١٤، ٥٣٩، ١٥: ٢٧٤-٢٧٥.

(٢٩) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ١٤: ٥٧٧؛ ونقلها عنه الصفدي إلا أنه أسقط اسم المصدر (سعد الدين) فأصبح الخبر مشوّها فيفهم منه أن فخر الدين ابن عم الملك الصالح، وإنما العبارة عند الذهبي: "فذكر سعد الدين: أن ابن عَمِّه فخر الدين ..."، فأصبحت بعد حذف المصدر عند الصفدي بالمعنى المذكور أعلاه. انظر: الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ١٠: ٥٦.

(٣٠) **مرآة الزمان**، ٢٢: ٤١١.

هذا نص بالغ الأهمية، فسبط ابن الجوزي ينقل هنا عمن شهد وسمع، ويغلب على الظن أنه سعد الدين ابن حَمُّوَيه، فهو من مصادره[٣١]، إذن فهذه وجهة نظر ابن عم فخر الدين، أن حسناته التي عدّدها حُسبت عليه سيئات. وواضح أن هذه الإجراءات تركت أثرًا سيئًا عند سعد الدين عكسته مرارة هذه العبارات. لكن إذا نظرنا إلى تلك الإجراءات من زاوية أخرى وجدنا أنها فُسّرت تفسيرًا مغايرًا، فقد سبقت الإشارة إلى أن الشائع حينها أن فخر الدين كان يتطلّع إلى المُلك بعد وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأوردنا شهادة ابن عمه بأنه جعل الناس يبايعون له بولاية عهد توران شاه، بل لقد حاول المماليك قتل فخر الدين قبل هذا لما شعروا بنيّته في الاستيلاء على السلطنة[٣٢]، ولم يتركوه إلا عندما حلّف الناس بالبيعة لتوران شاه، وأرسل الفارس أقطاي ليأتي به من حصن كَيفا. إذن فقد فسَّر المماليك تلك الإجراءات بأنها استمالة للناس وتمهيد لاستيلائه على السلطنة، تمامًا كما فسّرها توران شاه[٣٣]. بل نجد الذهبي وهو من أجازه سعد الدين في رواية تاريخه يُفسّر هذه الإجراءات بهذا التفسير الأخير: "ولما مات الصالح قام فخر الدين بأمر المُلك وأحسن إلى الناس وأنفق في العسكر مئتي ألف دينار وأحسن إلى الرَّعِيَّة وأبطل المُكُوس وركَبَ بالشاويشية، ولو أمهله القضاء لكان ربما تَسَلْطن"[٣٤].

(٣١) انظر مثلاً: السابق، ٤٠٣، ٤٠٦، ٤١٧.

(٣٢) سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ٢٢: ٤٠٩، ٤١٠.

(٣٣) انظر مثلاً: السابق؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ١٤: ٥٨٧.

(٣٤) **تاريخ الإسلام**، ١٤: ٥٨٧.



هذه الأمور تدخل مباشرة في تقييمنا لما رواه سعد الدين ابن حَمُّوَيه عن توران شاه، وواضح أن هذه الأحداث التي مرَّ بها المصدر قد أثّرت أثرًا غير قليل في حكمه ونظرته للأمور، فأصبح توران شاه خصمًا له، بل ولآل فخر الدين جميعًا، وهذا ظاهر جليّ. من هنا نبدأ تقييم روايته وتفسيره لمقتل توران شاه، مقارنين بها روايات وتفسيرات أخرى.

نقل الذهبي عن سعد الدين ابن حَمُّوَيه: "قَدِمَ المُعظَّم فطال لسان كل من كان خاملاً في أيام أبيه، ووجدوه مُخْتَلَّ العَقْل، سَيِّئَ التَّدبير"[٣٥]، فلماذا كان في نظر سعد الدين سيئ التدبير؟ لعل في الجملة التالية لما سبق: "ودَفَعَ خُبْزَ فخر الدين ابن الشيخ بحواصله لجَوْهر الخادم لالاته"[٣٦]، إذن فالدليل الأول الذي قدّمه المصدر على سوء تدبيره أنه متعلّق بما تصرّف فيه من حواصل ابن عمّه فخر الدين، ثم أضاف دليلاً ثانيًا: "وانتظر الأمراء أن يعطيهم كما أعطى أمراء دمشق فلم يروا لذلك أثرًا"[٣٧]، وهذا دليل ذو وجاهة وقد شاركه فيه غيره، لكننا نلحظ هنا أن الأموال التي أنفقها ابن عمّه فخر الدين في المنصورة لم يقدّر المصدر أنها أموال توران شاه، فاعتبرها أعطيات فخر الدين الخاصة، ومن ثمّ كان يجب على توران شاه أن يعطي هو أيضًا؛ فكأنّه لا يعتبر ابن عمّه -حال توزيعه الأموال- كان يمثّل سلطة غير سلطة نفسه. ثم نأتي إلى دليله في اختلال العقل: "وكان لا يزال

(٣٥) السابق، ٥٩٧.

(٣٦) نفسه.

(٣٧) نفسه.

يحـرِّك كَـتِـفَـه الأيمن مع نصف وجـهـه، وكـثـيـرًا مـا يُولع بلِحْيته"(٣٨)، ولا يصح هنا محاكمة معارف المصدر بمقارنتها بمعارفنا اليوم، فهو ابن عصره وثقافة عصره -عند غير الأطباء- تعتبر هذه علامات تدل على عدم الاتزان العقلي، لكننا على الأقل نعلم من هذا أنه لا يستند على غيـر هذا للحكم بـ "الخلل العقلي" وإلا كان ذكره؛ لكننا مع هذا لا نجد ذكر ذلك عند المصدر الآخر، فانفراده بها يجعلنا أيضًا نشك بها لما ذكرناه من معاداته للشخص الذي يتحدَّث عنه؛ ولعل قائلاً يقول: إن قِصَر مدَّة وجود توران شاه في مصر وعدم تثبّت الناس منه تجعل احتمال عدم شيوع هذا منطقيًا. والرد أن المصدر الآخر الأمير حسام الدين كان أتابك لتوران شاه مدَّة ليست بالقصيرة، وكان معه في حصن كَيْفَا كما مرّ بنا، ولم ينقل هذا ولا أشار إليه، على الرغم من حرصه على تشويه صورته كما سيأتي.

ثم تأتي أخيرًا مسألة السُّكر، فقال: "ومتى سَكرَ ضرب الشَّمْع بالسيف، وقال: هكذا أريد أفعل بغِلْمان أبي!"(٣٩)، والحقيقة إنني أتعجّب من الباحثين الذين فهموا أن القدح هو في الشراب، وإنما المقصود ما أظهره السُّكر مما كان يُبطن في حالة الوعي، وهو التهديد ونيّة قتل كبار المماليك. وهذا واضح لكل من عانى مطالعة مصادر ذلك العصر، وإلا فما معنى مجالس الشراب للسلاطين والوزراء؟ وما معنى مئات الأخبار التي ترد بمنع هذا السلطان أو ذاك للحانات وبيع





(٣٨) نفسه.

(٣٩) نفسه.

الخمر، ثم يأتي الخبر بالمنع مرّة أخرى في البلد نفسه بعد سنوات، وليس لهذا إلا معنى واحد أنه أعيد السماح به ولكن لم يذكره المصدر، وأخبار كثيرة من هذا النوع. بل في ترجمة فخر الدين نفسه أنه كان "يتعانى شرب النبيذ"[٤٠]؛ وكان يُنادم السلطان الملك الكامل، فقال فيه نجم الدين علي بن يحيى الواسطي (ت ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م)، وهو كاتب في ديوان الإنشاء:

على منيةِ السودان صار مُشَرْيشا
وأعطوه شَبرا عندما شربَ الخمرا

يُشير في الأولى إلى إقطاع الكامل له منية السودان[٤١] لما خلع العمامة ولبس لبس الجندية، وإقطاعه شبرا لما نادم السلطان[٤٢].

(٤٠) السابق، ٥٨٧؛ اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**، ٢: ٢١٥، ٢١٧؛ الكتبي، **فوات الوفيات**، ٤: ٣٦٧.

(٤١) منية السودان: منية كبيرة في الضفة الغربية من النيل، وتبعد عن الفسطاط نحو خمسة عشر ميلاً. وهي الآن قرية من قرى الدقهلية بمركز دكرنس في مقابل أشمون طناح. راجع: محمد بن محمد الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق** (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، د.ت، نسخة مصورة ومعاد ترقيم صفحاتها عن طبعة معهد الدراسات الشرقية بجامعة نابولي، ١٩٧٢م)، ١: ٣٢٩؛ أحمد بن يحيى ابن الجيعان، **التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية** (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٧٤م)، ٨؛ علي مبارك، **الخطط الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة** (بولاق: المطبعة الأميرية، ١٣٠٦هـ)، ١٦: ٦٦.

(٤٢) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ٥: ١٦٩؛ **مفرج الكروب**، (تدمري)، ١١٤؛ اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**، ٢: ٢١٥؛ الكتبي، **فوات الوفيات**، ٤: ٣٦٧.

وداء البحث التاريخي هو الحكم على مقاييس عصر ما بقيم عصر الباحث ومقاييسه، وهو ما أنتج مثل هذا الفهم. وعليه فهذا العنصر خارج عن تقييمنا لأنه قصد به التهديد الذي أجلاه السُّكر، ولم يُقصد به السكر في حد ذاته.

فحكم سعد الدين إذن على شخصية توران شاه ينبغي أن يؤخذ بحذر، واضعين في الاعتبار المشاعر السلبية تجاهه نتيجة لتدهور وضع الأول الاجتماعي والاقتصادي منذ أن وليَ الثاني السلطة، مما جعله ينسحب إلى دمشق ليعيش في كنف أخيه الأصغر كما مرَّ من قبل. ويجب أن تُقرأ شهادته وتفسيره من هذا المنظار، والتقييم هذا لا يعني الرفض لهذه الروايات وتكذيبها، لكن يعني وضعها في الحسبان لمعرفة قيمة الرواية من حيث المصداقية والموضوعية.

نأتي الآن إلى المصدر الثاني، وهو الأمير حسام الدين أبو علي الهذباني، فهو كما أشرنا في ترجمته المختصرة أمير كبير، تسلم نيابة السلطنة في مصر والشام، ونيابة السلطنة منصب عالٍ خطير لا يصل إليه إلا رجل دولة محل ثقة السلطان وذوٍ كفاءة عالية. لكننا نلحظ أول ما نلحظ في شخصيته قوتها واعتزازه الشديد بنفسه، وهذا مفتاح مهم لفهم موقفه من توران شاه فيما بعد. نجد ذلك واضحًا في ترجمته عند اليونيني: "كان أميرا كبيرا جليل المقدار قوي النفس حسن التدبير كثير الرياسة عنده تعاظم"(٤٣)، ثم أورد اليونيني تفسيرًا لمصدر هذا "التعاظم" فقال: "وهذا

(٤٣) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٢: ٧٧؛ ونقلها عنه الذهبي وسائر من ترجم له: الذهبي، تاريخ الإسلام، ١٤: ٩٠٧.

التعاظم ... إنما اقتبسه من مخدومه الملك الصالح نجم الدين"(٤٤)، أي أن مصدرها وما عزّزها الثقة العالية والمكانة التي وصل إليها في عهد الصالح نجم الدين؛ وهذا تفسيره على أية حال. لكن هذا الاعتزاز والثقة يشعر القارئ بوجودها من خلال الروايات التي يرويها عنه ابن واصل خصوصًا، وقد سبقت الإشارة إلى ملازمة ابن واصل للأمير حسام الدين مدّة ليست بالقصيرة(٤٥). إذن نؤكد مرّة أخرى أن هذا الاعتزاز بالنفس، مفتاح مهم لفهم أحكامه فيما بعد.

ولمنزلة الأمير حسام الدين المتقدمّة في جهاز الدولة الإداري، كان خصومه السياسيون هم المساوين له في المرتبة أو المتقدمين عليه، ومن أبرزهم الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ سابق الذكر؛ فلا يتردَّد ابن واصل في أن يصف شعور حسام الدين عندما اشتدّ المرض على الملك الصالح وهو في الشام قبل عودته الأخيرة إلى مصر بالخوف الشديد(٤٦)، ومصدر الخوف هو الذي صرَّح عنه ابن واصل، وهو جليسه الدائم في تلك الفترة الذي يبحث معه وفاة الصالح، وهو استئثار فخر الدين - منافسه - بالملك(٤٧). بل يروي عنه ابن واصل أحاديث له مع الملك الصالح نجم الدين أيوب، تفيد أنه هو محل ثقة الملك الصالح أكثر من جميع منافسيه، فوصلت إحدى هذه الروايات إلى التلميح القوي

---

(٤٤) اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**، ٢: ٧٨.

(٤٥) انظر على سبيل المثال: ابن واصل، **مفرج الكروب**، (تدمري)، ١٠٠، ١٠٢، وغيرها من المواضع.

(٤٦) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ٥: ٣٧٦.

(٤٧) **مفرج الكروب**، (تدمري)، ١٠٢؛ المقريزي، **السلوك**، ١/٢: ٣٤٥.

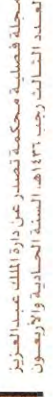
بأن الصالح أوصى له بالحكم من بعده(٤٨). فهذه كلها روايات تُثبت لنا أين كان الأمير حسام الدين يضع نفسه، وكيف يرى قدره ومنزلته، ويبقى هذا في الحسبان عندما نعلم، وعلى الرغم مما ادعاه من وصية الصالح له بعدم تسليم الحكم إلى توران شاه، أنه سارع بالإرسال إلى توران شاه بعد علمه المتأخّر بوفاة الملك الصالح، ولتحسب له هذه اليد عند السلطان الجديد الذي كان هو أتابكه سابقًا، وقد حذَّره من مغبّة الإبطاء بسبب مطامع فخر الدين الظاهرة(٤٩)، ويُضاف هذا التحريض إلى ما ذكرناه من قبل عن تفسير السلطان توران شاه لتصرفات فخر الدين.

كل هذه الآمال التي كان يعلّقها حسام الدين بالسلطان الجديد، وأهمها التخلص من خصومه السياسيين مثل فخر الدين، نرى أثرها في روايات نقلها وسجّلها ابن واصل عنه، وجميعها إيجابية تصف توران شاه بأجمل الأوصاف العقلية والعلمية والخُلُقيّة؛ ونرى كذلك كيف انقلبت هذه الآمال بعد وصول توران شاه بفترة قصيرة إلى المنصورة، إلى خيبة أمل عندما عزله السلطان الجديد(٥٠) بعد أن مات منافسه الرئيس وابتسم له المستقبل السياسي، فتأتي روايات عنه نقلها أيضًا ابن واصل وسبط ابن الجوزي تنقض تمامًا الروايات الأولى، وكأن قائلها شخص آخر تمامًا غير الأول.

(٤٨) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ٥: ٣٧٥؛ (تدمري)، ١٠٠، ١٠٣.

(٤٩) السابق، (تدمري)، ١٠٤.

(٥٠) السابق، ١٢٧؛ المقريزي، **السلوك**، ١/٢: ٣٥٨؛ أحمد بن علي المقريزي، **المقفى الكبير**، تحقيق: محمد اليعلاوي (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤١١هـ/١٩٩١م)، ٢: ٦٣٠.



وهذا التناقض بين حرص الأمير حسام الدين على قدوم توران شاه عاجلاً بعد موت الصالح، وما قاله بعد مقتل توران شاه من تأكيد أن الملك الصالح لم يكن يريد تولية ابنه من بعده، وأوصى حسام الدين بعدم تسليم البلاد له، لاحظه بعض المؤرخين مثل قطب الدين اليونيني (ت ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م) حيث قال: "فكان الأمير حسام الدين آكد الأسباب في حضور الملك المعظم وسلطنته بالديار المصرية والعجب منه كيف اجتهد في ذلك بعد ما سمع من الملك الصالح نجم الدين ما يقتضي العمل على خلافه"(٥١)، ولا يملك من قرأ الروايات المنقولة عن الأمير حسام الدين بعد مقتل توران شاه إلا أن يتعجّب من أفعاله بعد وفاة الصالح أيوب، ولكن هنا يأتي تحليل المصدر ليوضّح الأسباب والخلفيات والمصالح التي تربط المصدر (الأمير حسام الدين) بالحدث، فيزول التعجّب من هذا التناقض وتُفهم أسبابه.

فلنستعرض آراء ومواقف المصدر قبل عزله: كان الأمير حسام الدين كما سبق ذكره يؤمّل كثيرًا بعهد توران شاه، فقد كان سيتخلص من منافسيه السياسيين وسيحل في المرتبة السياسية العليا بعد السلطان، لأنه - كما قدَّر - كان الأقرب إلى السلطان من رجال دولة أبيه، فقد كان أتابكه قديمًا. ورأينا كيف سارع في استدعائه من حصن كَيفَا بعد وفاة الملك الصالح، محذّرًا من مغبَّة التأخّر وتآمر فخر الدين ابن شيخ الشيوخ(٥٢). قارن هذا بما نُقِلَ عنه بعد مقتل توران شاه،

(٥١) اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**، ٢: ٨٢.

(٥٢) ابن واصل، **مفرج الكروب**، (تدمري)، ١٠٤، ١٠٥؛ المقريزي، **السلوك**، ١/٢: ٣٤٥.

الذي عَزَلَه وأبعده قبيل مقتله، حيث حدّث سبط ابن الجوزي فقال: "كُنَّا نقول للصَّالح نجم الدين: ما تنفذ تحضره إلى ها هنا. فيقول: دعونا من هذا، فلحَّينا عليه يومًا، فقال: أجيبه إلى ها هنا أقتله!"(٥٣). ثم يحدِّثنا ابن واصل ناقلاً عن حسام الدين كذلك قوله: "مما أوصاني به الملك الصالح أنه إذا نزل به الموت فلا تستحضر تورانشاه من حصن كيفا، ولا تُوَله البلادَ، فإني أعرف أنه ما يجيء منه خير"(٥٤). لكن هذا الكلام تناقضه روايات ومواقف أخرى، فقد قال ابن واصل أيضًا حينما قدَّمَه الأمير حسام الدين إلى توران شاه حال وصوله: "ثم خرج الأمير حسام الدين نائب السلطنة إلى لقائه، وخرجتُ في صُحبته، فإنه كان في أيام الملك الصالح، رحمه الله، يعدُني بأنه إذا وصل إلى أبيه، أن يجمع بيني وبينه"(٥٥)، وقال ابن واصل في مناسبة أخرى: "وقد كان الأمير حسام الدين بآمد(٥٦) أتابكًا [كذا] للملك المظفر، فكان يذكر لي معرفته وفضيلته، ويقول لي إنه إذا وصل تكون أنت أقرب الناس إليه، فإنه بخلاف والده في ذلك"(٥٧)؛ فهذه إذن في أيام الملك الصالح أي قبل عزله وتدهور العلاقة، فكيف يعِدُه بالاجتماع به إذا قدم توران شاه على أبيه، والصالح يحذِّر من استدعاء ابنه، بل ويرغب في إبعاده في حياته؟! الجواب بناءً على الأدلة أن الصالح كان يستدعي ابنه، وليست الحال كما

(٥٣) سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ٢٢: ٤١٧.

(٥٤) ابن واصل، **مفرج الكروب**، (تدمري)، ١٠٠.

(٥٥) السابق، ١١٦.

(٥٦) آمد: أعظم مدن ديار بكر وأكبرها. انظر: الحموي، **معجم البلدان**، ١: ٥٦.

(٥٧) السابق، ١٠٦.

صوَّرها حسام الدين فيما بعد، بل وحَلَّف من كان عنده بالمنصورة عندما اشتد عليه المرض لابنه توران شاه[٥٨]. فلماذا لم يأت توران شاه إلى أبيه على الرغم من استدعائه له؟ هناك عدَّة أسباب:

أولاً: عدم الاستقرار في المنطقة والمحاولات المستمرة من القوى المحيطة به للاستيلاء على ما تحت يده[٥٩].

ثانيًا: خطر الطريق مع عدم الحاجة الملحة للمخاطرة في حياة الصالح. أما بعد موت الصالح فكان لابد من المغامرة التي كادت أن تهلكه في طريقه إلى دمشق[٦٠]، ويتبيّن من هذا حجم الخطر حقيقةً، وأنه لم يكن مجرّد حجّة لإخفاء أسباب أخرى تمنع من القدوم.

هناك وجه آخر كذلك لنقد الأمير حسام الدين لتوران شاه، وهو خاص بالجانب الخُلُقي والعقلي؛ فقبل تحطُّم آمال حسام الدين وانهيارها رُويت عنه الروايات التالية:

(٥٨) سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ٢٢: ٣٩٠؛ إسماعيل بن عمر ابن كثير، **البداية والنهاية** (مصر: مطبعة السعادة، ١٣٥١هـ)، ١٣: ١٨٠؛ إبراهيم بن محمد ابن دقماق، **الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين**، تحقيق: محمد كمال الدين علي (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، ٢: ٣٨؛ المقريزي، **السلوك**، ١/٢: ٣٣٩؛ محمود بن أحمد العيني، **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**، تحقيق: محمد محمد أمين (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ١: ٢٣.

(٥٩) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ٥: ٢٩٥-٢٩٦؛ عماد الدين إسماعيل أبو الفداء، **المختصر في أخبار البشر** (مصر: المطبعة الحسينية، ١٣٢٥هـ)، ٣: ١٦٨.

(٦٠) ابن واصل، **مفرج الكروب**، (تدمري)، ١٠٦؛ سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ٢٢: ٤٠٨.

١- سبق معنا نقل ابن واصل لرأي حسام الدين في توران شاه عندما كان يحدّثه عنه فيذكر "معرفته وفضيلته"(٦١).

٢- بل لقد بلغ حماس حسام الدين أن ينقل مغتبطًا شهادات الآخرين في توران شاه إلى مسامع ابن واصل، فلما التقى بالقاضي بدر الدين السِّنجاري(٦٢) بالسلطان الجديد في غزة، وصحبه إلى أن لاقاه حسام الدين، سأل حسام الدين القاضي عن رأيه وأبلغه فيما بعد لابن واصل الذي نقل لنا: "أن القاضي بدر الدين قال له: ما رأيت أحدًا مثل مولانا السلطان، وعلمه، وذكائه، وبراعته في جميع الفنون"(٦٣).

٣- يدلنا نص عند ابن واصل لحوار بينه وبين حسام الدين أن الأخير كان ما يفتأ يكرّر على ابن واصل محاسن توران شاه، وهذا يُضاف إلى النصوص السابقة التي وضح فيها أنه تعهد بتعريفه به عند قدومه لفضله ومعرفته؛ يحدثنا ابن واصل أن الأمير حسام الدين سأله بعد أول نقاش له مع السلطان: "كيف ترى السلطان؟ فقلت: في غاية ما يكون من الفضيلة، والاستحضار للعلوم. فقال: قد كنتُ أخبرتك بهذا"(٦٤).

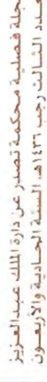
---

(٦١) ابن واصل، **مفرج الكروب**، (تدمري)، ١٠٦.

(٦٢) قاضي القضاة بدر الدين يوسف بن الحسن الزَّرزاريّ، المعروف بقاضي سنجار؛ كان له دور كبير في إنهاء النزاع بين الخوارزمية والملك الصالح نجم الدين أيوب لصالح السلطان، وكانت له أدوار أخرى في مناصرة الصالح أيوب، عرفها له وكافأه عليها لما تولى السلطنة. انظر عنه: اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**، ٢: ٣٣٢؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ١٥: ٩٣.

(٦٣) السابق، ١١٦.

(٦٤) السابق، ١١٨.





فلنورد الآن لتتضح لنا صورة التحول الذي أحدثه عزل حسام الدين في رأيه فيمن عزله:

١- يورد سبط ابن الجوزي أن الأمير حسام الدين حكى له: "كان توران شاه متخلفاً، لا يصلح للملك"(٦٥)، ولنضع في الحسبان أن الأمير حسام الدين (ت ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م) خرج من مصر في عصر دولة المماليك البحرية، سنة ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م إلى خدمة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز الأيوبي(٦٦)، آخر أمير أيوبي مستقلّ بالشام. والأرجح أن هذه الرواية وذلك اللقاء بين الرجلين تم بعد هذا الاستقرار في دمشق.

٢- ونقل ابن واصل عن الأمير حسام الدين وصيّة ادّعى أن السلطان الصالح أوصاه بها قبل سفره الأخير إلى الشام ألا يولي توران شاه بعده إن مات، فإن توران شاه "ما يجيء منه خير"(٦٧).

وهكذا ظهر من الأمير حسام الدين بعد عزله ما يناقض ما كان يقوله ويفعله يوم أن كانت آماله في السلطان الجديد

---

(٦٥) **مرآة الزمان**، ٢٢: ٤١٧.

(٦٦) الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن محمد بن غازي بن يوسف بن أيوب، صاحب دمشق وحلب (٦٣٤-٦٥٨/ ١٢٣٧-١٢٦٠م). خرج من دمشق لما قرب منها جيش هولاكو، ثم قُبض عليه في الكَرَك وأرسل إلى هولاكو وهو في طريقه راجعًا إلى بلاده. فلما بلغه هزيمة جيشه في عين جالوت، أمر بقتل الناصر سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م. للمزيد راجع: اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**، ١: ٤٦١ فما بعدها؛ الكتبي، **فوات الوفيات**، ٤: ٣٦١.

(٦٧) ابن واصل، **مفرج الكروب**، (تدمري)، ١٠٠؛ **مفرج الكروب**، ٥: ٢٧٥.

في قمتها؛ فأيهما نصدّق: روايات قبل العزل أم بعده؟ أعتقد أن المصدر الأخير: ابن واصل، سيحلّ لنا هذا الإشكال.

نأتي الآن للمصدر الثالث والأخير في هذا التقييم، وهو القاضي جمال الدين محمد بن سالم ابن واصل: تتميّز مرويات ابن واصل عن توران شاه بأنه لم يتأثر سلبًا أو إيجابًا بفترة حكم السلطان القصيرة؛ فلم تكن له آمال ومطامع حطّمها هذا السلطان الجديد، كما هي حال المصدرين السابقين، ولم يُعطه هذا السلطان الجديد فوق الذي كان فيه في عهد أبيه الملك الصالح. لكننا مع هذا نلاحظ أن ابن واصل متأثر جدًا بأحكام الأمير حسام الدين أبي علي، وهذا طبيعي إذ إنه اختصّ بصحبته وطول مجالسته، إلا أنه أورد أحكامه كلها ولم يقتصر على آخرها ونسي أولها، وهذه موضوعية عالية عند ابن واصل. ونجد صدى التعاطف مع حسام الدين في تفسيره لأسباب مقتل توران شاه، فهو يرى أن السبب الأول والرئيس هو إبعاد توران شاه لرجال أبيه، وتعجله في تنفيذ ذلك قبل أن يثبّت قدمه[٦٨]، وهو بالتأكيد تفسير هادئ ووجيه جدًا، فابن واصل يقارن بين استعجال توران شاه وبين رويّة أبيه الصالح في تنفيذ الإجراء نفسه، ويقارن بين استعجال توران شاه وتعجّل عمه الملك العادل، وكيف أدى في الحالتين إلى تخلّي رجال السلطة عنهما مع اختلاف طريقة العزل.

(٦٨) ابن واصل، **مفرج الكروب**، (تدمري)، ١١٨-١١٩، ١٢٧-١٢٨.

تأتي روايات ابن واصل وانطباعه المباشر عن توران شاه متسقة على رأي واحد، بخلاف الروايات المنقولة عن الأمير حسام الدين. فمنذ البداية وابن واصل يصف توران شاه باتزان العقل، والمشاركة في العلوم وحبه للاجتماع بالعلماء، حتى عدّ ابن واصل سبعة من كبار علماء مصر في وقته، ووصف حرصهم على حضور مجلس السلطان لأنهم كما قال: "وجدوا بالملك المعظّم سوق الفضيلة نافقة"(٦٩) أي: رائجة؛ بل يعطينا مثالاً لما يجري في مجالسه التي جمعته بالعلماء وحواره معه(٧٠)، وجميع هذه الروايات تُظهر توران شاه بمظهر مختلف تمامًا عما اشتُهر عنه بعد مقتله من المجون والجنون والسفه، ومما يجعلنا نطمئن لأحكام ابن واصل:

أولاً: أنه وعلى العكس من سابقيه لم يخسر بتولي توران شاه، بل بقي على حاله ولم يضره تغيّر السلطان؛ وهذا جانب غالبًا ما يُغيّب عند تقييم المصادر.

ثانيًا: الجانب العلمي عند ابن واصل الذي يجعل حكمه على توران شاه حكمًا علميًا له وزنه، خاصة إذا وضعنا في الحسبان أنه كتبه بعد وفاة توران شاه وانقطاع الدولة الأيوبية.

---

(٦٩) السابق، ١٠٦، ١١٨، ١١٩، ١٢٠-١٢١، ١٣١.

(٧٠) السابق، ١١٧، ١١٩.

الخاتمة:

أي جانبي شخصية السلطان توران شاه نرجّح: الجانب المتهتك السفيه المتهوّر، أم جانب الشخصية الذكية التي لها نصيب من العلم إلا أنها افتقرت إلى قراءة صحيحة للظروف السياسية والخبرة السياسية المناسبة نتيجة للبعد عن مسرح الأحداث طوال فترة التكوين؟ تقييم المصادر الذي قمنا به يُشير إلى أن الجانب الأول نقلته لنا مصادر حطَّم تولي توران شاه للسلطنة آمالاً عريضة لهم، وأنهى مسيرتهم السياسية بفشل كبير؛ وثاني هذين المصدرين، وهو الأمير حسام الدين، ترد عنه روايات فيها تناقض صارخ، حفظتها لنا موضوعية المصدر الثالث (ابن واصل). فواضح إذن، حسب الأدلة الواردة في هذا البحث، أن تلك الشخصية شوّهت تمامًا عند معظم من نقل عن هذه المصادر لعدّة أسباب:

أولاً: سهولة رواج الأخبار عن شخصية مجهولة بين معظم الناس، فقد كانت مدّة حكم توران شاه قصيرة جدًا، قضى جلّها في جبهة قتال الصليبيين في المنصورة، ولم تتح الفرصة لمعظم أهل دولته للقائه ومعرفته من خلال حكمه.

ثانيًا: أن مقتل توران شاه يعتبر انتهاء دولة وبداية أخرى، والدولة المملوكية الجديدة -بوضعها الخاص- لابد أن تبرّر انتزاعها للحكم من الدولة الأيوبية، فكان ترويج الروايات الثالبة ذائعًا، وعُمّي على الروايات الأخرى.

ولم يكن المقصود من هذا البحث الدفاع عن صورة الملك المعظم توران شاه، بل اتَّخذَ هذا السلطان أنموذجًا لإثبات



أهمية تقييم المصادر عمليًا. فالأخذ بأقوال المصادر وتفسيراتها بلا تقييم لا يمكن أن يوصل الباحث إلى قراءة صحيحة للحدث، ومن ثمّ فما سيبنيه من نتائج هو خاطئ أيضًا.

